تجديد الفكر القومي

د. مصطفى الفقي

دار الشروق

تقـــديـم

لعبت القوميات دورًا رئيسًا فى تاريخ الإنسانية ، وكانت طرفا مباشرًا فى كل الصراعات التى عرفتها البشرية . فكلمة « القوم » تعبير عن نزعة ذاتية ، وخصائص مشتركة تميز البعض عن الكل ، وتعطى إحساسًا بالانتماء ، يجعل « المسألة القومية » سابقة على كل الاختلافات الدينية أو التوجهات الفكرية ؛ لأنها رابطة لا تخلو من انحياز ، يصل إلى حد التعصب الذى يؤدى ، فى كثير من المناسبات ، إلى الربط بين القومية والعنصرية ، مع اعتبار أن عصر القوميات هو عصر نشوء الدولة ، بعد بلورة شخصية الشعوب واكتمال نضوج الأمم . والشرق الأوسط عرف ، عبر تاريخه الطويل ، أقواما فى أرجائه المختلفة ، جاء ذكرهم فى الكتب المقدسة ، وترددت حولهم الروايات الدينية (*) ، إلى أن أصبح الإسلام هو الدين الغالب بين سكان تلك المنطقة من عالمنا المعاصر ، وأضحت العروبة هى التيار القومى السائد ، انتسابا إلى اللغة الواحدة والخصائص الثقافية المشتركة ، بالإضافة إلى تشابه الظروف التاريخية وتداخل الموجات الحضارية بين شعوب الأمة العربية .

ولقد فكرت فى أن أكتب عن تجديد الفكر القومى ، دون الوقوف عند مجرد إحيائه ، لأن مفهوم التجديد ينطوى على دلالات الإحياء مع التغيير ، وليس مجرد استعادة روح خفت حماسها أو ضعف تأثيرها . فالتجديد يعنى ، بالدرجة الأولى ، أن عودة الروح تقترن بتطورات جديدة ، وتستوعب التحولات التى حدثت ، والتغيرات التى طرأت على الساحة السياسية فى الوطن العربى ، منذ انتهاء فترة المد القومى ، الذى تعرض لموجة انكسار تدخل الآن عقدها الثالث .

ولابد ، فى مستهـل هذا الكتاب ، أن أقدم ، وبوضـوح ، دوافعى لارتياد هذا الطريق

(*) عرف الشرق الأوسط القديم أقوامًا ، مثل : « عاد » و « ثمود » و « لوط » وغيرهم ، حيث جاء ذكرهم فى التوراة ، والإنجيل ، ثم القرآن الكريم ، وإن اختلفت المسميات لنفس الأقوام فى سياق القصص الدينى .

واختيارى موضوع تجديد الفكر القومى ، أو البعث المتطور للحركة العربية الواحدة . ويمكن التعرض لهذه الدوافع فى عدد من الاعتبارات ، أهمها ما يلى :

أولا : إن الحركة القومية قد عرفت موجات المد والجزر ، وحالات التقدم والانحسار لأنها بطبيعتها حركة أمة ، وارتباط شعوب ، وتعبير أصولى يعنى العودة إلى الجذور القومية واستعادة أمجاد التاريخ الواحد . وروح الأمم لا تنتهى . . كما أن الشعوب لا تفنى . . قد تتغير المسميات ، أو تتبدل الكيانات السياسية والأشكال الدستورية ؛ ولكن « ذات » الأمة لا تغيب ، كما أن وجودها لا يتحول إلى عدم .

من هنا ، فإن الظروف التى تواجهها الأمة العربية ، فى سنواتها الأخيرة ، هى ظروف صراع سياسى ، وتضارب فى الرؤى ، واختلاف حول الأولويات . ولكن الروح القومية لم تتغير . كما أن رابطة العروبة لا تبدو محل جدل فكرى ، بقدر ما هى موضع اهتمام سياسى . ولقد عرف العرب لحظات مجد قومى ، كما عرفوا لحظات انكسار تاريخى ؛ وتعلمت الأمة فى الحالتين أن ماضيها موصول بحاضرها ، وأن مستقبلها مرتبط بقدرتها على الصمود الجاد والمواجهة الشجاعة ، والحركة المستمرة .

ثانيا : إن الفكر القومى العربى ، يختلط تاريخيا بتاريخ الإسلام فى المنطقة . ويحتدم الجدل دائماً : هل العروبة هى التى حملت الإسلام إلى الشعوب التى قبلته ، والأمم التى آمنت به ؟ أم أن الإسلام هو الذى أعطى هذا المجتمع الجاهلى ، فى شبه الجزيرة العربية ، قدرة الانطلاق نحو آفاق الفتوحات الإسلامية ونشر الدعوة ؟ مع التسليم بأن العربية هى لغة القرآن الكريم وأن رسول الإسلام عربى ؟

ولاشك أن ذلك الجدل يعبر عن إشكالية مصطنعة . فمفهوم العروبة ، يعنى ضمنا استيعاب الثقافة الإسلامية ، واحتواء تاريخ الدعوة ، كنقطة محورية فى تجسيد الشخصية القومية ، ويجعل الحديث عن الحضارة العربية الإسلامية مسألة مقبولة لدى العرب جميعا دون النظر فى معتقداتهم الدينية ، أو اختلافاتهم الفكرية .

ثالثا : إننا ، حين نتحدث عن تجديد الفكر القومى العربى ، لا نقف فى مواجهة مباشرة مع الروافد الحضارية الأخرى لذلك الفكر . إننا نؤمن بأن حضارة الأمم وتاريخ الشعوب هما تراكم طبيعى لطبقات متتالية من ثقافات متعددة ، وفدت على الأرض العربية ، وتركت بصماتها التى بلورت فى النهاية الشخصية الثقافية لسكانها . إننا نؤمن بأن حركة التاريخ حركة تراكمية ، وليست بالضرورة حركة تصادمية . فنحن لا نجد ، ونحن نتحدث عن تجديد الفكر القومى العربى ، غضاضة فى أن نتحمس أحياناً للفرعونية فى مصر ، أو البابلية فى

العراق ، أو الفينيقية فى الشام ، أو تاريخ البربر فى شمال إفريقيا ؛ فتلك كلها رواسب حضارية ، ومظاهر تاريخية ، انصهرت بها فى النهاية شخصية العرب ، وتبلورت قوميتهم .

إننا ، باختصار ، نعترف ، فى إطار الدعوة إلى التجديد القومى ، بالخصوصية القطرية فى إطار قومى ، وبالمزاج الشعبى ضمن أمة عربية واحدة .

رابعا : إن انشغال الدول العربية بمشكلاتها ، وانصرافها إلى شئونها ، لا يعنيان بالضرورة ، أن حالة الانزواء القومى أو الانكفاء المحلى سوف تستمر ، خصمًا من حساب المصلحة العربية العليا ، بل قد يكون العكس صحيحًا ، إذ إن الوضع العربى الراهن يستوجب ، أكثر من أى وقت مضى ، ضرورة التفكير الجدى فى البحث عن صيغة عصرية للمد القومى ، تستوعب فى ذاتها كافة المتغيرات ، وتحتفظ فى ضميرها بكل الثوابت .

خامسا : يهمنى أن أسجل بداية ، أنه يتعين علينا أن نلتزم بأكبر قدر من الموضوعية والحياد الأكاديمى ، حين نتعرض بالإشارة إلى تاريخ الحركات القومية المعاصرة فى المنطقة العربية ، دون تحامل على اتجاه معين أو حركة بذاتها ، لأسباب فكرية أو تعصب قطرى . فموقفنا من حركة البعث العربى لا يتناقض مع موقفنا من التيارات الناصرية ، ولا يكون تفهمنا لفكر القوميين العرب خصما من تقديرنا لحركة الوحدويين الاشتراكيين ، أو على حساب اليسار القومى برغم كل تحالفاته التاريخية أوانتكاساته الحالية .

بل إننى أزيد على ذلك ، أننى لا أجد حرجا فى أن أقرر أن كثيرًا من المسلمات فى تاريخنا القومى الحديث ، تحتاج إلى مراجعة أمينة ، وتوصيف دقيق ، وتحليل صادق . فأنا ، مثلا ضد تجريم « الحزب القومى السورى » ، وأرى أنه قد آن الأوان لرد الاعتبار إليه ، وإنصاف قيادته ، لأنه يعبر عن اجتهاد قومى فى مرحلة معينة ، ويعد تجسيدًا لمعنى القومية وتمهيدًا لأمل الوحدة .

إننى أكرر أن كثيرًا من المعطيات المقبولة فى تاريخنا القومى ، ما زالت تحتاج إلى إعادة دراسة وتدقيق موضوعى ؛ فالأصنام التاريخية ضد طبيعة العقل ، كما أن الأحكام المطلقة ضد حركة التاريخ .

سادسا : إذا كانت الثورة العربية الكبرى ، التى قادها « الشريف حسين » فى ظل ظروف الحرب العالمية الأولى ، هى محاولة قومية للخلاص من الحكم العثمانى فى مرحلة احتضاره فإن ثورة ١٩٥٢ المصرية تمثل مواجهة عربية شاملة ، تجاوزت حدود مصر ، لتعبر عن حركة عربية واحدة ، ضد رموز التبعية السياسية والسيطرة الأجنبية . وفيما بين الثورتين ، تعددت

المحاولات ، وتنوعت الرؤى ، فى إطار شامل يؤمن بوجود أمة واحدة ، ذات خصائص مشتركة وضمير قومى لا خلاف حوله .

ومن هنا ، فإن أى حديث حاليا ، عن الفكر القومى العربى المعاصر ، إنما يعنى بالضرورة ، شيئًا مختلفا تمامًا عن الطرح السائد من قبل . فنحن اليوم نستوعب جميع المستجدات على الساحتين الدولية والإقليمية ، بدءًا من الشكل الجديد للنظام الدولى وانتهاء باتفاقيات السلام القادمة بين العرب و إسرائيل .

إننا ، باختصار ، لا نقف جامدين أمام رموز فكرية ، ولا نردد صياغات جامدة ، كما لا ندور حول شعارات عفا عليها الزمن . بل إننا نؤمن ، وعن يقين كامل ، بأن هناك أمة عربية تواجه أكبر مأزق قومى فى تاريخها الحديث ، وأنها أصبحت فى حاجة إلى استحضار عاجل لذاكرتها القومية ، واستعادة ملحة لتضامنها المفقود ، مع استيعاب واع لكل المتغيرات و إيمان عقلانى بالثوابت . . . أمة عربية فاعلة ، تمارس دورًا حضاريًا فى عالمنا المعاصر . . . أمة عربية قادرة على أن تبرأ من رنين اللفظ ، حتى لا يصفها الغير بأنها « ظاهرة صوتية » . . . أمة صادقة مع نفسها ، تقول ما تؤمن به ، حتى لا يتهمها الآخرون بازدواج الشخصية . . . أمة إيجابية ، تسعى إلى الأخذ والعطاء مع الدنيا من حولها ، دون تعصب أو انحياز ، دون عفوية أو اندفاع . . . تحكم مسيرتها يقظة الضمير القومى . . . وتحدد طريقها صحوة العقل العربى . . . ويشدها نحو المستقبل فكر متطور وروح متجددة .

د . مصطفى الفقى

الدكتور / مصطفى الفقى

* تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة عام ١٩٦٦ .
* دبلوماسى فى وزارة الخارجية المصرية منذ عام تخرجه ، وخدم فى سفارتى مصر لدى بريطانيا والهند كما تولى منصبى أمين عام المجلس الاستشارى للسياسة الخارجية ومدير معهد الدراسات الدبلوماسية .
* حاصل على دكتوراه الفلسفة فى العلوم السياسية من جامعة لندن عام ١٩٧٧ .
* عمل سكرتيرًا للسيد رئيس جمهورية مصر العربية للمعلومات فى الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٢ .
* له عشرات المقالات باللغتين العربية والإنجليزية فى الدوريات العربية والأجنبية .
* عضو فى جميع الجمعيات المتصلة بالشئون السياسية والدولية ودراسات الشرق الأوسط فى القاهرة .
* قام بالتدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة لمدة خمسة عشر عامًا (٧٨ ــ ١٩٩٣) ، وممتحن خارجى للدرجات العلمية العليا بالجامعات المصرية .
* حصل على الجائزة الأولى فى « المقال السياسى للشباب » من المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عام ١٩٦٦ .
* عضو المجلس الأعلى للثقافة (لجنة العلوم السياسية) .
* شارك فى اعداد وتأليف الموسوعة القبطية (١٩٩٠) وموسوعة الشروق (١٩٩٣) .

هذا الكتاب

« تجديد الفكر القومى » غاية يتطلع إليها المؤلف للخلاص من المأزق العربى الذى واجهته أمتنا منذ انحسار المد القومى وما نجم عنه من غياب روح التضامن وبروز النزعة الشعوبية والاتجاه نحو الانزواء القطرى . ويطرح هذا الكتاب تصورًا لتجديد روح الأمة وبعث التيار العروبى فى مواجهة حالة العجز القومى والتمزق العربى بل والفراغ السياسى وحتى يتمكن «عرب العصر » من استيعاب التغيرات الدولية والتحولات الإقليمية . إذ من غير المقبول أن يدخلوا فى مرحلة التعايش مع الآخرين دون أن يتعايشوا مع أنفسهم فى إطار واقعى يحترم الخصوصية ويسمح بهامش للاختلاف . . ويعزز المؤلف رؤيته الجديدة بعرض لمختلف التيارات القومية المؤثرة والقوى السياسية الفاعلة منذ بدايات هذا القرن فى موضوعية كاملة متجردًا من انتماءاته الفكرية ومشاعره الشخصية .

إن هذا الكتاب يدعو إلى تجديد الروح القومية ولا يقف عند مجرد إحياء الفكر العربى لأن النظم قد تطورت كما أن الظروف قد تغيرت . .

دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣